

النشاط الثقافي في العالم

الاتحاد السوفياتي

رسالة من برهان الخطيب
نجيب محفوظ في موسكو

موضوعنا هذا لو ذكر لنا الصديق برهان الخطيب فكرته الخاصة ونظرته الى الكاتب وفضته هذه موضوع النقاش .

برهان : اود لو سمحتم ان تكون مشاركتي في هذه الندوة هي الاستماع اليكم فقط رغبة مني لان تكون علاقتكم بالكاتب مباشرة من خلال نتاجه وحده وبذلك تكون الآراء خالصة تماما . فضلا ، يعتبر محفوظ عندنا من كبار كتاب العربية وفضته هذه « اللص والكلاب » يعتبرها النقاد انعطافا في ادبه ، قبل هذا كتب محفوظ روايات تاريخية واجتماعية صور فيها جانبا من تاريخ مصر القديم والحديث . ويتمتع الكاتب بشعبية واسعة جدا وهو يحظى ، كما اعلم ، باحترام جميع الفئات والاطراف الوطنية ، يسارها ويمينها ، الا انه احيل على التقاعد في الآونة الاخير واتخذ من الاسكندرية - بعد القاهرة - مقاما دائما له .

سوكولوف : هل تسمم الكاتب اي منصب سياسي ؟
برهان : كما اعلم ، لا .

كالانوف : الحقيقة ان هذه الرواية لا تتصل بحياتنا اليومية اتصالا مباشرا ، ونحن في تقييمنا لاي عمل فني ننطلق بطبيعة الحال من وضعنا الشخصي وتجربتنا الادبية ايضا ، ورغم ذلك فهذه الرواية احسها تدفعنا الى الحديث عنها . هذه الرواية ترينا ، الى حد ما ، ان ما حدث في البلد بعد الثورة هو ما كان قبلها . وهذا لم يذكر في القصة بشكل محسوس ، بل انه ومن وجهة نظر البطل اصبحت الامور اسوأ ، فهو قد خرج من السجن ووجد ان مثاله المتجسد في رؤوف علوان قد انهار بتحول رؤوف نفسه عن مثله ، وخيانة زوجته وانكار ابنته ومتابعة الباحث له وغير ذلك . الا ان نقطة ضعف القصة في اعتقادي هي انها لم تشكل وتركب الى الحد الكافي . لا يطلب طبامان الكاتب ان يعرض كل ما يعرفه عن بطله بل ما هو ضروري للعمل الفني فقط . سعيد يخرج من السجن وينظر فيما حوله بعيون متعطشة للحياة ، لكل شيء ، لكنه يجد في الانتظار خيانة زوجته له ، اما لماذا هذه الخيانة فهذا ما لم يعرضه لنا الكاتب . فاذا كان لهذه الخيانة مبرر تبطل احقية البطل في صراعه مع الآخرين . رؤوف ايضا يخدعه ، فاذا كان رؤوف رمزاً لخيانة المثقفين لافكارهم في مرحلة ما فأبن مكافئ المثقفين الشرفاء الذين لا ينتكرون لمبادئهم على الاطلاق ؟ وتدرجيا تغيير عواطف ومزاج سعيد ومعنى كل حياته القادمة يتركز في رغبته الانتقام من رؤوف وزوجته وزوجها . ماضي سعيد غير واضح لنا . وغير واضحة ايضا افكاره ومعتقداته ، يفكر سعيد ان السرقة هي الطريق الصحيح « لان ما يؤخذ بالسرقة يسترد بالسرقة » كما قال له رؤوف ، وقال له ايضا ان « التنظيم ضروري » ولكن اي تنظيم هذا ما لم يكن واضحا . يلعب رؤوف دورا كبيرا في حياة سعيد ، عرفه على عالم الكتب وعلمه مع الآخرين اطلاق النار . ولكن لاي شيء هياهم ؟ هذا ما هو غير مفهوم لنا ايضا ، شيء ما كان يمنع الكاتب في اعتقادي من ذكر الحقيقة كاملة . وهكذا فالثورة حدثت ورؤوف الذي يمثلها بنظر سعيد كان قد تغير واستحال الى ما هو غير الثورة ...

وحيد (طالب من الفقاس) : اعتقد ان روعة الكتاب في انه لم يصف كل شيء ، ولم يقل لنا كل شيء ، ولعل الكاتب فعل ذلك بتركيز شديد . وان المؤلف يقف الى جانب سعيد لانه يمثل فكرة

ترددت كثيرا قبل طرح هذه الفكرة على معهد غوركي الادبي في موسكو ، ذلك لان مزاج الشبيبة هذه الايام ، في كل مكان تقريبا ، نوري رافض حاد ، يكادون في تورثهم ورفضهم هذا ان يضيعوا الكثير من القيم والتقاليد الحسنة التي خلفها لنا الاقدمون . ليس « المزاج الرافض » ما كنت اخشاه طبعا ولكنه سوء الفهم الناتج عن تخلخل الثقة التي عقدناها سابقا مع التراث القديم ، هنا لا يسلم دستوييفسكي ولا تولستوي ولا تورجينيف من النقد والانكار ، فكيف بكاتب لم يسمعو باسمه بمد « رغم اهمية هذا الكاتب : نجيب محفوظ » وعلى الرغم من كونهم طلبة مههد ادبي والكثير منهم قد قطع شوطا بعيدا في طريق الادب وحرفة الكتابة ، فمن بين طلبة هذا المعهد تجد مهندسين وضباطا واطباء وجيولوجيين تركوا معاملهم ومختبراتهم وادواتهم وجاؤوا للجلوس على مقاعد الدراسة كتلاميذ يعملون مجددا الاقلام والدفاتر المدرسية ليدرسوا تاريخ ثقافة واادب العالم كله خلال خمس سنين ضمن برنامج دراسي اعد على مستوى حرفي كبير يشرف عليه اتحاد الكتاب السوفيات لاعداد كادر ادبي مزود بمعرفة شاملة تساعد على عملية الخلق بشكل مبدع اصيل .

من ضمن برنامج هذا المعهد عقد ندوات دورية لمناقشة نتاج الطلبة انفسهم والنتائج والاصدارات الادبية الجديدة التي طرحها دور النشر السوفيتية في الاسواق كل يوم ، وبذلك يجري التعرف على ابداعات الكتاب في حينها ومواكبة التطور النامي في الحركة الادبية . وعندما سألت بعض طلبة المههد عن مدى معرفتهم بواقع الادب العربي المعاصر وجدت ان اغلبهم يفتقد صورة واضحة عما يحدث عندنا ، لذا قررت تقديم احد الكتاب العرب واقترحت ادراجه ضمن برنامج المعهد لمناقشة احد اعماله على الاقل في الندوات التي تعقد لهذا الشأن . وقد حظيت هذه المبادرة بتشجيع نائب عميد المههد الكسندر ميخائيلوفج كالانوف .

عثرت في عدد قديم من مجلة « الادب الاجنبي » الصادرة في موسكو على ترجمة « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ منشورة في عددها الرابع من عام ١٩٦٤ . وكان ان عقدت ندوتان في المعهد لمناقشة هذه القصة استمرت اربع ساعات طرح فيهما العديد من الآراء والافكار الممتعة ، فتبدد ترديدي وخشيتني حالما حامي النقاش واتضح ان كاتبنا العربي قد اجتاز حدوده فعلا وان « المزاج الرافض » الذي يتعامل به الطلبة مع كثير مما يقرأونه اليوم لم يؤثر على تقبلهم واستمتاعهم بفن كاتبنا نجيب محفوظ . وادناه نص ما جاء في الندوتين ، قام الزميل بوجيدار الطالب البلقاري في المههد بتسجيله اختزالا ثم قمت بدوري بترجمته من الروسية الى العربية .

افتتح الندوة نائب عميد معهد غوركي الكسندر ميخائيلوفج كالانوف كالانوف : نجيب محفوظ من اكبر الكتاب العرب الاحياء ، اعماله الفنية تتميز بروح معادية للاستعمار وتحمل رواياته طابع الاحتجاج الاجتماعي في مرحلته المبكرة الاولى . ولكن قبل الخوض في

سميرنوف : هذه القصة مكتوبة بسرعة وهي ليست عن الكفاح ولا الثورة ، الشيخ يقول لسعيد ان يهتم بيئته لا الثورة ، وهو ليس رمزا للإبدية ، بل هوالدين الذي يشمل مكانا كبيرا في التأثير على ارواح الشرقيين .

لوسا كينايفا : لا يمكن انكار ان القصة كتبت تحت تأثير الاحداث التي جاءت مع ثورة مصر . ولكني لا اعرف فيما اذا كان الصراع في الرواية نموذجا للصراع الحقيقي داخل المجتمع المصري ، وفي اعتقادي ان الكاتب ما تناول هذا الموضوع الا لتمثله فكرة ما ، ورؤوف الخائن لا يمكن ان يكون ممثلا لثورة مصر . والفكر في اعتقادي يأتي في هذه الرواية بدرجة ثانية ، فمتنما يشكو سعيد هومومه الى الشيخ ويخبره انهم سلبوه كل شيء ، الزوجة والبيت والامن يجيبه الشيخ ان ما يحتاج اليه لا الحقيقة ولكن البيت ، وهذا منطقي ، وعلى سعيد ان يبحث اذن عما يهيء له هذا البيت ، واذا كانت الثورات تحدث غالبا لاجل الخبز والحريه فما هو منهج سعيد اذن ؟ لا يقول لنا الكاتب هذا .

اميل روبل : القصة أعجبتني ، تشمر فيها بالروح الشرقية، قرأتها بجلسة واحدة ، والشيخ يبرز فعلا امام العيان ، وهذا النموذج في اعتقادي نظري لا يحمل خصوصيات الواقع ، ولعله يرمز فعلا عند الكاتب الى الدين الخالص من الشوائب الراضية . يتخذ الانتقام عند سعيد طابعا فكريا ، والقصة اذن ليست مجرد قصة بوليسية كتبت لامتع القارئ ، انه يقول ما معناه « اني اذا قتلت فالشعب اجمعه يحزن علي لان كل رصاصة اطلقها هي رصاصة الشعب » فهو اذن صاحب قضية ، قضية اجتماعية ، لكن ذلك غير مبرز بشكل كاف ، وبشكل عام تجد القصة تنحو منحى انساني .

ايرا بكدانوف : يستعمل الكتاب غالبا المنولوج الداخلي المباشر وكثيرا ما تجد عندهم خلطا بين سرد الكاتب نفسه وسرد بطل قصته ، الا ان هذا الخلط لا تجده في هذه القصة ، يريد الكاتب بهذا الاسلوب ان يجعل بطله قريبا من القارئ ، سعيد شخص ضعيف ، باستثناء حبه لابنته وزوجته « قديما » . في هذا البطل لا شيء ايجابي وفي كل اخفاقاته يذنب الاخرين دائما ولا يلقي لوماء على نفسه ابدا ، وهو يعتقد ان له الحق في الحكم على الناس الا انك وانت تنتهي من قراءة القصة لا تدري ما الذي اراد الكاتب ان يقوله بالضبط ، ولعله اراد ان يقول ان التمرد الفردي كائن الى الخذلان ما دام الفرد يجابه لوحده سطوة الحكام والانظمة .

كالانوف (في ختام الندوة) : فهم اي عمل فني لا يكون تاما اذا لم تكن على معرفة بتاريخ البلد الوطني . وكل منكم قال شيئا ما ممتنا بحق . وكما رأينا ان القصة هذه تعطينا القدرة على مختلف التفسيرات ، وهذا جيد ، الا ان الكاتب حاول في اعتقادي تحميل قصته هذه معنى اكبر مما قدمته لنا القصة بالفعل . فمن الغا القصة ان المؤلف يختار بطله كمثل لنفسه وحسب ، اي ان البطل لا يمثل نموذجا اجتماعيا هنا قدر تمثيله الشخصية الغلاتية في المكان الغلاني ، فينشا السؤال لم كتبت الرواية اذن ؟ اراد المؤلف ان يقول لنا شيئا ما جدا عن معنى الحياة على هذه الارض الخاطئة ولكنه لا يعرض لنا النقيض الايجابي ولا حتى تصور عما يجب ان تكون عليه الحياة الانسانية . طريق سعيد محكوم بالفشل منذ البدء ، ربما اراد المؤلف ان يرينا ان الانسان حر ولكن لهذه الحرية حدود ، لا يجب ان يتعداها ، كعدم التجاوز على الاخرين وعدم سلب حياة اي من الناس . كان يجب منذ اول اخفاق لسعيد ، منذ اول حدث تراجيدي اصابه عند فشله بقتل الخائن عيش وزوجته ان يفكر هل هو على حق ام لا ؟ هل ان هذا الطريق يقود الى العدالة الحقيقية ؟ لكن سعيد يستمر دون مراجعة نفسه ، ومرة اخرى يسفك دم بريء اخر ، ويتوحد ، والمقبرة في القصة تحمل

محققة في شخص . انا فريب الى الانسان الشرقي وافهم بشكل وواضح ان الانتقام قد يكون المعنى الاول والاخير لحياة فرد . يذكر الفنان اكثر من مرة واحدة انك تجد عند الشعب البسيط تعاطفا مع من يقع في ورطة ما او مصيبة ، وهذا التعاطف لا يخضع في اعتقادي لكل تحليل ، انه مجرد تعاطف انساني اصيل - نور ، طرزان -

سوكولوف : انه تعاطف طبقي ، شعور بالانتماء الطبقي ، ففراء ضد اغنياء ، تلك هي القضية .

وحيد : لو كنت مكان رؤوف لفعلت كل ما في وسعي لانقاذ سعيد ، وسعيد ما كان بحاجة الى النقود مثلما كان بحاجة الى المشاركة للناس الوجدانية له ، والكاتب يقول ان لا احد يفهم سعيد ، اما البطل الثاني في اعتقادي فهو الشيخ الذي صور بشكل رائع جدا ، فنهج ان تمرد الانسان مهما كان بعيدا وغنييفا فانه في مكان ما يتكىء على منكا . وممتع جدا وضع هذين الشخصين احدهما مقابل الاخر ، سعيد يتحرك دائما في الحياة اما الشيخ فقد كان هادئا مطمئنا آمنا ، في اساس كل ما هو حي يوجد الموت ، والانسان الشرقي لا يستطيع الهرب من السؤال : الابدية !

سوكولوف : قرأت هذه القصة من غير ربطها بموضوع الثورة هناك نقائص ولكنها ليست نقائص فنية بل هي فكرية ناتجة عن اختلافي مع آراء الكاتب ، في القصة لا نجد ما تعارفنا على تسميته بالبطل الايجابي ، وكان يهمننا ان نعرف ما النموذج الايجابي عند الكاتب .

وحيد : ليس من واجب الفنان عرض النماذج ، انه يطرح فكرا وهذا من حقه ، انه يقول ان لا حق لاحد مطلقا في قتل الناس ، وان الرصاصات التي توجهها نحو الاشرار قد تطيش وتصيب الابرياء كما حدث في القصة . وان الناس يجب ان يبحثوا عما يوحدهم ، هذا ما لم يقله المؤلف الفنان مباشرة لكنك تحسه خلال مطالعتك الرواية .

كالانوف : يفترض الكاتب اسلوبين للحياة ، فمن جانب « قلق » سعيد الذي لا يفوده الى شيء . ومن جانب اخر : التسليم بالواقع الذي هو متحرك في الظاهر ولكنه ساكن في الجوهر ، يمثل هذا الجانب الشيخ . ولقاءنا الاول بالشيخ يرينا انه عجوز بالحيية بيضاء . وعندما نتعرف على طفولة سعيد نرى الشيخ مرة اخرى بالشكل هذا نفسه . فالشيخ هنا رمز لما هو لا يتغير والمؤلف كما ارى لا يتعاطف مع بطله سعيد قدر تعاطفه مع هذا الشيخ .

لودا سكلارينكا : من ناحية الشكل لا يجب النظر الى هذا العمل كرواية بل هي قصة اجتماعية . اما من ناحية المضمون فاجد فيها ثلاثة اساليب مختلفة للكفاح : الاول هو الثورة التي لم تغير من شيء في الواقع عمليا ، الثاني فوضوية وتمرد سعيد الفردي الذي يقوده الى الخذلان والخيبة ، الثالث هو الدين الذي يفشل في ان يكون ملجأ لسعيد وان كان هكذا بالنسبة لايه ، اذن فهناك حاجة لاسلوب رابع ، ولكن الكاتب لا يهدينا اليه . واذا كانت الثورة ذات الطبيعة البرجوازية تفشل في تحقيق التغيير فهل تكون الثورة الاشتراكية التي تعتمد على جماهير الشعب هي البديل ؟ ذلك ما لم يقله لنا الكاتب بشكل مباشر .

جوجلوف : الشيخ من الناحية الفنية شخصية لا لون لها ولكن القصة كتبت بدناميكية . الا ان غياب المثال منها يسبب اليها . وعلى الرغم من تعاطف المؤلف مع البطل الرئيسي نقرر فشل سعيد مسبقا بحكم رغباته الانتقامية . سعيد هو شخص لم يفهم الحياة جيدا ولم يحقق فيها ما يذكر . وهذه القصة تجدها عن الانتقام اكثر من كونها قصة كفاح ضدا لشروط الاجتماعية .

ايضا معنى رمزيا ، وهذا وحده ما يجعله مترويا متاملا . وظهور نور يتخذ كذلك معنى رمزيا ، لا مخرج ، وفي النهاية ينتهي البطل خلف السطور التي لم يذكرها المؤلف . ومن خلال الشيخ يحاول المؤلف ان يرينا طريقا اخرى الى التعامل مع هذه الدنيا ومبادئ اخرى تتحكم في الانسان . الشيخ شخصية تقليدية وليس ممن الضروري ان يكون ممثلا للدين ، انه يمثل عالما معنا من التأمل ، وهذه الشخصية نموذج للتعامل اللادنيوي للشخصية الشرقية مع الحياة . الشيخ شخصية معانية وهو حاضر لتقديم لا المساعدة الروحية فحسب بل والمادية ايضا وهو لا يدعو سعيد الى سقف بيته فقط بل يطعمه ايضا . يحاول الشيخ مساعدة الابن سعيد ولكنه لا يفلح لان هذين البطلين يعيشان في عالمين مختلفين . فالشيخ لا يفهم الطريق العيشي الذي يجري فيه سعيد وسعيد لا يفهم العلاقة التاملية مع الحياة ، تلك التي عندها الشيخ بما يحيطه ، وبكدانوقا لاحظت ان القصة كتبت بأسلوب السرد المباشر ، الضمير المخاطب حينما والضمير الغائب حينما آخر ، وهذا الاسلوب ، اصبح متبعا في الادب الاجنبي . نحن نحكم اذن على الكثير من الحوادث والشخصيات من خلال كلمات سعيد فهل يكفي هذا للقارئ ؟ لا . نبوية لا نراها الا بعيون سعيد ، نرى كيف تعرفنا وتزوجنا وعاشنا ، ونحن لا نفهم ما الذي دعا نبوية الى الخيانة ، ربما هناك ما يبرر فعلتها ؟ ولذلك فالسرد من خلال سعيد ، اسلوب المخاطب ، لا يفلح ان يكون اسلوبا موضوعيا للكشف الفني . واذا كانت القصة قد انارت

حفيظة البعض فلأن الكاتب يشير الى ان كل شيء يجري ولكن لا شيء يتغير ، وبغض النظر عن كيفية حدوث التحولات في حياة المجتمع نجد ان الحياة الخاصة تستمر هنا ، في القصة ، على مثالها القديم وقوانينها الابدية ، هذا ، مرة اخرى ، ما لم يقله الكاتب مباشرة ولكن ذلك يمكن تبينه من خلال السطور . ويمكن تذنب الكاتب في ان رؤوف ليس هو ممثل الثورة الحقيقي ، في الثورة دائما هناك ثوار حقيقيون نظيفون ، ويظل الحكم على بعض النماذج في القصة صعبا ، فليس من السهل لنا تصور طبيعة المجتمع المصري على حقيقته ، ليس فقط مميزاته القومية بل وملامح تركيبه الثقافي ايضا . ولا اعتقد بان نموذج نور فرض من الكاتب لكي يرينا ان المعاناة موجودة فقط في اعماق المجتمع ، فقد جعل نموذجا مثاليا الى حد ما فحبها لسعيد لا يعتمد على اساس وهو بلا حدود ، ونور كامرأة وشخصية لا يطرح الكاتب من خلالها شيئا جديدا . هذه القصة ارتنا تأثير الادب الاوروبي نوعا ما ، وهذا يتضح لا من خلال تركيب القصة وحده بل وفي التفسيرات الكثيرة التي توجيها للقارئ . القصة ككل مثيرة للاهتمام كثيرا وقد اعطينا تصورا واضحا كاملا عن كيفية تطور الادب العربي وعن الاشواط البعيدة التي قطعها حتى اوصلته الى مواقع الواقعية الاوروبية .

برهان الخطيب

مسكو

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

العراب	الآن بيتون	ابك يابلدي الحبيب
الشوارع العارية	نيكوس كازنتزاكي	زوربا
الجحيم	البرتو مورافيا	انا وهو
ماريانا	البرتو مورافيا	الانتباه
هيروشيما حبيبي	غوستاف فلويبر	مدام بوفاري
نساء طراودة	موريس ويست	السفير
تمت اللعبة	اريك سيفال	قصة حب
مسرحيات سارتر	بيار دوشين	الموت جا
الفثيان	البير كامو	الموت السعيد
دروب الحرية ٣/١		
ماريو يوزو		
فاسكو براتوليني		
هنري باربوس		
لوركا		
مارغريت دورا		
جان بول سارتر		
« «		
» »		
» »		
» »		